الفصل الثانى
الإعجـاز البيانـــى

تمهيد:

اختلف العلماء فى وجه الإعجاز فى القرآن الكريم، فذكروا وجوها كثيرة، وكأن كل واحد منهم نظر إلى القرآن من زاويته الخاصة فأدرك ما أدرك من مواطن الإعجاز، وذلك أن كل ما فى القرآن معجز، ولقد سئل (بندار) الفارسى عن موضع الإعجاز من القرآن الكريم، فأجاب بأن السؤال خطأ وهو شبيه بقول القائل ما هو موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته، وكذلك القرآن لا يسأل عن موضع الإعجاز فيه لأن كل شيء فيه معجز «وليس فى طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله فى كلامه وأسراره فى كتابه فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده»[1].

ذلك أن كل إنسان نظر فيه، أخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية، ومن هنا اختلفت آراء العلماء قديما وحديثا فى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم.

– فقال قوم هى الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون بل البيان والفصاحة، ومنهم من ذهب إلى أن إعجاز القرآن راجع إلى نظمه وأسلوبه الخاص. وقال البعض هو تأثيره فى القلوب والنفوس، ومنهم من قال هو ما فيه من الإخبار عن المغيبات.

كذلك قال بعض العلماء، إن وجه الإعجاز فى القرآن هو ما فيه من أصول العلوم والحكم والتشريعات، وادعى البعض بأن إعجازه بصرف الله للعرب عن معارضته. وهذه هى آراء قدامى العلماء والمفكرين فى إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) الاتقان جـ ٢ صـ ١٢١.

– وأما فى العصر الحديث، فقد ذهب كثير من العلماء إلى أن وجه إعجاز القرآن هو ما فيه من الحقائق العلمية التى لم يعرفها العلم الحديث إلا فى العصور الحديثة.

كما ذهب بعض المحدثين إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن الكريم راجع إلى تصويره الفنى للحقائق. بل إن جلال الدين السيوطى فى كتاب «معترك الأقران فى إعجاز القرآن» يذكر خمسا وثلاثين وجها لإعجاز القرآن ا كريم[١].

(والفيروز ابادى) يذكر ما يقرب من سبعين وجها من وجوه الإعجاز ثم يقول: «والغرض من ذكر هذا المجمل التنبيه على أن الكلمات القرآنية كل كلمة منها بحر لا قعر له ولا ساحل فأنى للمعارض الماحل»[٢].

ويقول على بن أبى طالب: «لو أردت أن أحمل وقر ستين بعيراً فى تفسير فاتحة الكتاب لفعلت».

وهذه الآراء العديدة راجعة فى نظرى إلى طبيعة القرآن نفسه، فهو عطاء متجدد لكل الأزمان والعصور، وكلما أتى جيل، وجد فى القرآن الجديد، ولن ينتهى هذا العطاء حتى تنتهى الدنيا بما فيها، وصدق الله حين قال: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»[٣].

والواقع أن إعجاز القرآن الكريم راجع إلى ما سبق من أقوال – خلافا للصرفة فلنا معها وقفة طويلة – يقول سعد التفتازانى: «فالجمهور على أن إعجاز القرآن لكونه فى الطبقة العليا من الفصاحة والدرجة القصوى من البلاغة (...) وهذا مع إشتماله على الإخبار عن المغيبات، وعلى دقائق العلوم الإلهية، وأحوال المبدأ والمعاد، ومكارم الأخلاق والإرشاد إلى فنون الحكمة العلمية والعملية والدنيوية»[٤] وسوف نفصل هذه الوجوه التى قيلت فى إعجاز القرآن تفصيلاً دقيقا يكشف عن أبعادها وأسسها.

---

(١) راجع ص ٢٥٩ من أثر الفكر الدينى فى البلاغة العربية.
(٢) الفيروزابادى – بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ١ صـ ٦٥ – ٧٧.
(٣) القمر ١٧.
(٤) المقاصد جـ ٢ صـ ١٢٥.

ولنبدأ الآن بأهم هذه الوجوه وهو الإعجاز البيانى والبلاغى، حيث نوضح مفهومه وصوره.

الإعجاز البيانى والبلاغى

لاشك أن إعجاز القرآن البيانى ونظمه البديع هو أهم وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، بل إننا لو لم نثبت الوجوه الأخرى لإعجازه لكفى العقلاء والمنصفين هذا الوجه.

– ذلك أن التحدى الذى تضمنته آيات التحدى التى سبق ذكرها، إنما هو تحد بلفظ القرآن وبيانه لا بشىء آخر خارج عن ذلك، فما هو تحد بالإخبار عن المغيبات، ولا بما تضمنه القرآن من حقائق العلوم الكونية ولا اشتماله على أصول العقيدة وحقائق الشريعة، بل كان بشىء واحد هو بيان القرآن وبلاغته وفصاحته.

ولا أدل على ذلك من أن السور الأولى التى نزلت فى القرآن الكريم لم تكن تشتمل على هذه الوجوه وما اشتملت علي بعضه منها مثل الحقائق العلمية فى سورة (اقرأ) لم تكن مفهومة للعرب حينذاك، ومع ذلك سحرهم القرآن بهذه السور القلائل وآمن منهم الكثير، وحتى الذين لم يؤمنوا به كانوا يستشعرون إعجاز القرآن وفصاحته وبيانه من خلال هذه السور البسيطة مما يدل على أن الوجه الأساسى لإعجاز القرآن هو «نظمه وبلاغته وفصاحته».

ويدل على ذلك أيضاً أن رسول الله ﷺ طلب منهم الإيمان برسالته بمجرد سماع القرآن «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون»(١).

ولا معنى لمثل هذه المطالبة بالإقرار بمجرد التلاوة إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو فى نفسه آية فيها أوضح الدليل على أنه ليس كلام البشر بل كلام خالق

---

(١) التوبة ٦.

البشر، لما فيه من النظم البديع الذى لم تعهده العرب فى أحاديثها ولا فى آدابها.

يقول الأستاذ محمود شاكر فى تقديمه القيم لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى: «إن إقرار العرب عن طريق النظم والبيان أن القرآن كلام رب العالمين دليل يطالبهم بالإقرار بصحة ما جاء فيه من الوجوه الأخرى للإعجاز من الأخبار بالمغيبات واشتماله على دقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون – فليست هى الدليل الذى يطالبهم بالإقرار بأن نظم القرآن وبيانه مباين لنظم البشر وبيانهم»(١).

وهذا هو ما قصدناه حين قلنا إن إعجاز القرآن البلاغى أهم الوجوه، ويقدم على ما سواه من الوجوه الأخرى – ولكننا احترزنا بقيد هام – وهو أن هذا الوجه يلزم العقلاء والمنصفين سواء كانوا على علم بأصول البلاغة والتذوق البيانى أم لا، فإن كانوا على علم بها فسوف يسلمون بلا مناقشة، وإن لم يكونوا على علم بها فسوف يسلمون بإعجازه حين يعلمون أن العرب أصحاب البلاغة والفصاحة قد سلموا واعترفوا بإعجاز القرآن البيانى، فيكون عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن عجز لمن سواهم من البشر، ولكن ماذا نفعل مع أولئك المعاندين والمجادلين بالباطل ومنحرفى الفطرة، وفاقدى الذوق البيانى ببلاغة القرآن وجماله؟

هنا لابد أن نقدم لهم الوجوه الأخرى من إعجاز القرآن، فلعل هذه الوجوه مجتمعة تفعل ما لم يفعله الإعجاز البيانى وحده. وعلى أية حال فسوف نبدأ بالإعجاز البيانى ثم نعقب بالوجوه الأخرى.

– فما مفهوم الإعجاز البيانى؟

– وما صوره فى القرآن الكريم؟

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٣٢.

مفهوم الإعجاز البيانى[١]:

البيان القرآنى كلمة عامة تشمل فصاحة القرآن وبلاغته ونظمه وقد اختلف العلماء حول أى هذه الوجوه يرجع إليه الإعجاز البيانى.

- فمنهم من ذهب إلى أن ذلك راجع إلى النظم الخاص للقرآن وحده.

- ومنهم من أرجعه إلى النظم والبلاغة معا وجعلهما وجها واحدا.

- ومنهم من فرق بينهما واعتبر كل واحد منهما وجها مستقلا.

- ومنهم من أرجع الإعجاز البيانى للقرآن الكريم إلى أسباب أخرى، سوف نكشف عنها من خلال العرض لآراء العلماء فى هذه القضية.

---

(١) البيان : ورد فى اللغة بمعانى مختلفة منها - مابين به الشىء من الدلالة وغيرها وبان الشىء بيانا أى اتضح. (ومنه آيات مبينات) أى موضحات للحق.

فالبيان هو الإيضاح ومنه حديث آدم وموسى: «أعطاك الله التوراة فيها تبيان كل شىء» أى كشفه وإيضاحه ومنه وصف القرآن بأنه مبين والكتاب المبين» أى الذى أبان طرق الهداية.

وجاء البيان بمعنى الفصاحة - فالبيان هو الإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال هو الفصيح، ومنه قول الرسول ﷺ «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة» كأن يكون الرجل عليه الحق وهو ألقوم بحجته من خصمه فينقلب الحق ببيانه إلى نفسه، لأن معنى السحر قلب الشىء فى عين الإنسان لا فى الواقع فكأنه سحر السامعين ببيانه. راجع ص ٦٧ من لسان العرب لابن منظور جـ ١٣.

والبيان بهذا المعنى أشمل وأعم من **علم البيان**، الذى هو فرع من فروع البلاغة، بل إنه أعم من مصطلح البلاغة، أما أنه أعم من مصطلح علم البيان فلأن علم البيان هو علم معرفة **الطرق المختلفة التى يمكن أن يؤدى بها** المعنى الواحد، وقد حدد العلماء مباحثه فى التشبيه والمجاز والكناية والإستعارات.

وأما كون البيان أعم من البلاغة فلأن البيان كما قلنا هو الفصاحة، وهذه الفصاحة قد تكون فى الكلمة وقد تكون فى الكلام والمتكلم معا، أما البلاغة فلايوصف بها إلا الكلام والمتكلم ولا يمكن أن نقول كلمة بليغة بينما نقول كلمة فصيحة.

ومن هنا وجدنا وجها من وجوه الإعجاز البيانى هو **فصاحة الكلمة واستخدامها فى مكانها** المناسب، ووجدنا النظم وحسن التأليف، ووجدنا التصوير الفنى ووجدنا المناسبات بين الآيات والسور، وكل هذه الوجوه لا تدخل تحت أى علم من علوم البلاغة المعروفة التى هى-المعانى والبيان والبديع)=

آراء العلماء فى الاعجاز البيانى

١ – رأى القائلين بالنظم الخاص:

ذهب الجاحظ وجمع من العلماء منهم عبد القاهر والأصبهانى إلى أن إعجاز القرآن البيانى راجع إلى (نظمه الخاص) وحده – والنظم هو التأليف والرصف والضم[١]، ونظم القرآن هو عبارته الخاصة التى تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة[٢] من حيث وضع الألفاظ فى مواضعها، وصياغتها بهذه الطريقة الخاصة بالقرآن الكريم.

يقول الشهر ستانى النظم يطلق على التركيب والترتيب أى ترتيب الأقوال بعضها على بعض[٣].

إذا فوجه الإعجاز عند هؤلاء هو فى نظمه الخاص ووضع ألفاظه بصورة خاصة بصرف النظر عن البلاغة والفصاحة أو حتى المعانى التى احتوتها الألفاظ.

وليست بلاغة القرآن فى نظرهم راجعة إلى ألفاظه فإنها نفس الألفاظ التى يستخدمها العرب، فالقرآن نزل عربيا وبلسان عربى مبين.

وليست راجعة إلى معانيه لأن بعضها موجود فى الكتب السابقة قال تعالى «وإنه لفى زبر الأولين» وإنما ترجع إلى نظمه الخاص الذى هو الصورة الخاصة بالقرآن– أما اللفظ والمعنى فهما العنصر الذى تكون منه القرآن.

= فنحن لا نريد من **الإعجاز البيانى** ما تضمنه القرآن من فنون البلاغة التى حددها البلاغيون فى علوم البلاغة الاصطلاحية، بل إن بيان القرآن أرفع من ذلك وأسمى ولا يمكن أن نخضعه للمقاييس التى وضعها **البلاغيون** فقد وضع علماء البلاغة مقاييساً للفصاحة والبلاغة ولم يخضع لها القرآن الكرم فقد اعتبروا التكرار عيباء واعتبروا السجع من صور البلاغة، واعتبروا استخدام الكلمات غير العربية مخلا بالفصاحة وخرج القرآن على كل ذلك حيث اعتبر فيه التكرار ميزة، واعتبر السجع عيبا.

(١) راجع الصناعتين لأبى الهلال العسكرى.

(٢) المعجم الوسيط – الجزء الثانى ص ٩٤١.

ولا شك أنه باختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالخاتم والقرط والسوار، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها لا بعنصرها الذى هو الذهب والفضة والحديد.

وكذلك القرآن وسائر كلام العرب عنصره واحد ولكن صوره مختلفة، وهكذا فالإعجاز المختص بالقرآن إنما يتعلق بنظمه المخصوص، وأسلوبه الغريب المخالف لنظم وأساليب العرب[١]. هذا هو رأى الأصبهانى والجاحظ فى وجه الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم، وقد ألف الجاحظ كتاباً خاصا فى هذا الموضوع بعنوان «إعجاز القرآن فى نظمه».

ومن الذين ذهبوا إلى هذا الرأى أيضاً شيخ البلاغة العربية «عبد القاهر الجرجانى» فى كتابه «دلائل الإعجاز» حيث عرض لبعض آيات الكتاب الكريم ووضح أن مزاياها وإعجازها لا يرجع إلا إلى شيء واحد هو ارتباط الكلمات ببعضها بصورة خاصة يعجز عنها البشر[٢].

٢ - رأى القائلين بالنظم والبلاغة معا :

أما جمهور العلماء وعلى رأسهم إمام الحرمين الجوينى، وأبو بكر الباقلانى والقاضى عبد الجبار وغيرهم، فقد ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن البيانى بنظمه الخاص المخالف لنظم العرب وبلاغة النظم معاً.

وفرق إمام الحرمين بينهما بأن النظم الخاص معناه كونه على أسلوب يخالف المعتاد من أساليب العرب، وأما بلاغة النظم فهى بلوغه من الفصاحة والمطابقة لمقتضى الحال الحد الخارج عن طوق البشر. وإنما جعلهما إمام الحرمين وجها واحدا ولم يكتف بالجزالة والبلاغة وحدها حتى لا يدعى بأن قصائد فصحاء العرب قد اشتملت على الجزالة والبلاغة، كما أنه لم يكتف بالأسلوب وحده حتى لايعترض عليه بأسلوب مسيلمة الكذاب ونظمه حيث حاول أن يفرغ بعض السور من ألفاظها ويضع ألفاظا أخرى على نظمها[٣].

---

(١) راجع صـ ١٢٠ من الإتقان للسيوطى.

(٢) راجع دلائل الأعجاز صـ ٣٣.

(٣) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٦.

وفى هذا يقول القاضى عبد الجبار: «إن القرآن الكريم جاء بطريقة فذة فى النظم والتأليف مختصة برتبة فى الفصاحة معجزة، وأنه باعتبار الأمرين: الطريقة الفذة فى النظم والاختصاص برتبة الفصاحة يكون الإعجاز»(١).

ويقول ابن عطية فى تفسيره: «الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه».

وهكذا فرأى الجمهور على أن النظم والبلاغة وجه واحد لا يصح التفريق بينهما.

٢ – ومن العلماء من فرق بينهما واعتبر كل واحد منها وجها مستقلا وهو القاضى عياض والقاضى عضد الدين الايجى.

يقول القاضى عياض: «وكل واحد من هذين النوعين: الإيجاز والبلاغة ذاتها، والأسلوب الغريب بذاته نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما إذ كل واحد خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها خلافا لمن زعم أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب»(٢).

وكذلك فرق عضد الدين الايجى بين النظم والبلاغة واعتبر كل واحد منهما وجها مستقلاً(٣).

٤ – ومن العلماء من ذهب إلى أن إعجاز القرآن البيانى بجمعه بين صفتى الفخامة والعذوبة على الرغم من أنهما من الصفات المتعارضة حيث أن العذوبة نتاج السهولة، بينما الجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة – فكان اجتماع الأمرين فى نظمه – مع نبو كل واحد منهما عن الآخر، فضيلة خص بها القرآن.

ذلك أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها فى البيان متفاوتة.

---

(١) المغنى جـ ١٦ صـ ٣١٦ وقارن الإعجاز البيانى لبنت الشاطئ.

(٢) المرجع السابق صـ ١٢٢.

(٣) شرح الموقف جـ ٨ صـ ٤٤.

– فمنه البليغ الرصين الجزل وهو نوع من الكلام لا يخلو من الوحشى المستنكر والغريب المستكره والمعانى البعيدة عن الذهن.

– ومنه الفصيح القريب السهل وهو نوع من الكلام لا يخلو من السهولة والوضوح.

– ومنه الجائز المطلق وهو نوع من الكلام لا يخلو من الإسفاف والابتذال والوضاعة فى الألفاظ والمعانى.

وقد جمع القرآن الكريم بين النوعين الأولين على الرغم من تباعدهما فجاء بعيدا عن الوحشى والغريب والصنعة المتكلفة، ومع ذلك لم يخل من الجزالة والقوة، وفى الوقت نفسه جاء قريباً إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير التناول لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله وهذا ما دفع الخطابى إلى أن يقول إن جمع القرآن بين الجزالة والعذوبة هو وجه الإعجاز فى البيان القرآنى(١).

٥ – رأى الإمام الرازى فى الإعجاز البيانى :

أما الإمام الرازى فقد حاول إبراز فصاحة القرآن بطريقة فريدة لم يشاركه فيها أحد من العلماء ذلك أنه لم يحاول إبراز المحاسن البلاغية فى القرآن وإنما حاول أن يبرز عدة سلبيات وجدت فى كلام الفصحاء فضيعت فصاحته بينما وجدت فى القرآن الكريم فزادته جمالا وبيانا(٢).

يقول الإمام الرازى : إعلم أنه اجتمع فى القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته، ومع ذلك، فإنه فى الفصاحة بلغ النهاية التى لاغاية ورائها ومن ذلك:

١ – أن فصاحة العرب أكثرها فى وصف مشاهدات مثل وصف بعير أو جارية أو ملك، أو وصف حرب أو وصف غارة وليس فى القرآن من هذه الأشياء شىء

(١) راجع صـ ١٤ وصـ ٤٦ من إعجاز القرآن للباقلانى وقارن صـ ٢٤ من ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

(٢) يلاحظ أن المادة التى صاغ منها الرازى رأيه مأخوذة من كتاب إعجاز القرآن للباقلانى صـ ٣٦ وما بعدها – إلا أن الرازى عرضها بطريقة فريدة لم يفطن لها الباقلانى.

فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التى اتفقت عليها العرب فى كلامهم.

٢ – أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق ونزهه عن الكذب فى كل أغراضه وآياته، بينما نجد أن كل شاعر ترك الكذب والخيال فى شعره والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيدا، ولذلك نلاحظ أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلامى فى الجودة كشعرهما الجاهلى، بينما نجد أن آيات القرآن منزهه عن الكذب لا تقول إلا الواقع والحق، ومع ذلك جاءت فى أرقى درجات البلاغة.

٣ – أن كل من قال شعرا فصيحا فى وصف شىء، فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى فى وصف ذلك الشىء بمنزلة كلامه الأول وفى القرآن تكرار القصص وتكرار وصف الجنة والنار ومع ذلك فلا يزيده التكرار إلا جمالا وإبداعا.

٤ – أن القرآن اقتصر فى أغراضه على إيجاب العبادات، وتحريم القبائح، والحث على مكارم الأخلاق، وتوجيه النظر إلى الآخرة وأمثال هذه الأغراض توجب تقليل الفصاحة[١] ومع ذلك جاء فى قمة الفصاحة.

ومن أراد أن يفهم هذا الوجه فليقارن بين قصيدة من القصائد التى قيلت فى أغراض الحب والهيام ووصف الليل وغير ذلك من أغراض الشعر. وبين الكتابة حول غرض من أغراض القرآن الكريم.

وأخيراً يحاول الرازى أن يلزم العقلاء باعجاز القرآن البلاغى حتى ولو لم يصل إلى قمته فيقول: القرآن لا يخلو أما أن يقال إنه كان بالغا فى الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول ثبت أنه معجز، وإن كان الثانى كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة فعدم إتيانهم المعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة فكان ذلك معجزاً»[٢].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ص ١٢٦.

(٢) السابق صـ ١٢٧.

ومعنى ذلك أننا لو افترضنا جدلا أن القرآن لم يصل إلى أقصى درجات البلاغة والفصاحة، وسلمنا بما يقوله الحاقدون من أن فى القرآن آيات أبلغ من آيات أخر، وأن فيه كلمات غير عربية، وأن فيه متشابهات، وتكراراً[١] وغير ذلك من الشبه أقوال لو سلمنا جدلا بأن القرآن لم يبلغ الغاية القصوى فى البلاغة، فإن ذلك يكون أدخل فى باب الإعجاز – لأنه كان بهذه البساطة كما يدعون ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله، أو على حد تعبير سعد الدين التفتازانى «إن عدم ظهوره فى أقصى درجات البلاغة والفصاحة أو فى بالفرض، وهو بمنزلة صانع يبرز من مصنوعاته ما ليس غاية مقدوره ثم يدعو جماهير الحذاق فى الصناعة إلى أن يأتوا بمثل ما آتاه»[٢].

وأخيراً فإن هذا هو رأى الإمام الرازى فى هذه القضية والرأى فى مجموعة لا غبار عليه إلا أن لنا عتابا بسيطا عليه، فى دعواه أن حسان بن ثابت ولبيد بن ربيعه حين أسلما هبط شعرهما الإسلامى ولم يكن كشعرهما الجاهلى.

ذلك أن شعر هؤلاء الشعراء لم يهبط وإنما زاد رقة وعذوبة، لأن الإسلام رقق مشاعرهم وهذبهم وغير ما فى نفوسهم وقلوبهم من صفات الجاهلية بما تحتوى عليه من كفر وفسق وظلم وكبر و عدم مراعاة لحقوق الآخرين ويعبر عن هذه المعانى التى كان يدور حولها شعرهم قول عمرو ابن كلثوم:

ونشـــرب إن وردنا الماء صـــفـــوا

ويشـــرب غـــيـــرنا كـــدرا وطينا

وإذا بلـغ الرضـــيع لنا فطامـــا

تخـــر له الجـــبـــابر ســـاجـــدينا

فالإسلام حينما جاء، غير هذه النفوس، وطبعها بطابعه الأخلاقى. ومن هنا رق شعرهم وأصبح أكثر عذوبة – ولكنه لم يسقط ولم يهبط عن شعرهم الجاهلى.

أما إذا كانت نظرة الرازى إلى قوة الألفاظ وجزالتها، فهذه نظرة ضيقة، لأن العبرة فى الشعر ليست باللفظ وحده، بل بالمعنى أيضاً. بل إن القرآن أعطاهم

---

(١) راجع المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٧.

(٢) السابق نفس الموضع.

ثروة لفظية، وقدرة على استخدام اللفظ، كما أن القرآن بهرهم باعجازه وافحمهم ببيانه حتى أن بعضهم أمسك عن الشعر ولم يقل شيئاً وهو لبيد بن ربيعة وحينما سئل عن ذلك قال أبدلنى الله به سورة البقرة وآل عمران(١).

وبعد عرض هذه الآراء العديدة فى إعجاز القرآن البيانى فإننا نقرر أنها كلها آراء صحيحة ولابد من الأخذ بها جميعا عند تقرير إعجاز القرآن الكريم فكل وجه منها مستقل ويثبت إعجاز القرآن فى حد ذاته، ولكن الجمع بينها واعتبارها جميعا، يجعلها تعضد بعضها بعضا فى إبراز الصورة الكاملة لإعجاز القرآن البيانى وهذا ما سوف نقوم به من خلال المبحث التالى الذى سنتحدث فيه عن بعض صور الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم.

صور الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم

لقد اشتمل القرآن الكريم على كل وجوه البيان والفصاحة التى استخدمها العرب فى لغتهم وآدابهم وأشعارهم. ولكن استخدام القرآن لها كان استخداما جديدا لم يعهد فى اللغة العربية فكل صورة من صور الإعجاز البيانى تشكل معجزة فى حد ذاتها.

وسوف نحاول فيما يأتى أن نشير إلى بعض صور ووجوه الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم.

الوجه الأول:

اشتمال القرآن الكريم على أساليب البلاغة من الاستعارة والكناية، والتشبيه، والمجاز وبراعة الاستهلال وحسن الختام وغير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم، ومما سوف يتضح من خلال الاقتباسات القرآنية التالية:

إقرأ فى التشبيه البليغ قول الله تعالى: «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً»(٢).

---

(١) قارن ص ٢٦٩ جـ ١٦ من المغنى للقاضى عبد الجبار.

(٢) سورة النور ٣٩.

«مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا»[١] «فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث»[٢].

واقرأ فى الاستعارة قول الله تعالى «ولما سكت عن موسى الغضب»[٣] «والصبح إذا تنفس»[٤] «واسأل القرية التى كنا فيها»[٥].

«وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر»[٦].

هذه الآية التى استخرج منها ابن أبى الأصبع نحوا من عشرين صورة من الصور البيانية، إذ يقول فى كتابه بدائع القرآن «وما رأيت ولا رويت فى الكلام كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضربا من البديع وعددها سبع عشرة لفظة»[٧].

والخلاصة أن كل لفظة من ألفاظ القرآن الكريم تحتوى على معان بيانية وبلاغية وهذا ما يجعلنا نكتفى بما ذكرنا من الاقتباسات ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى كتاب الله تعالى، وأما فاقدو الحس البيانى فعليهم بالرجوع إلى التفاسير العديدة التى كشفت عن ما فى القرآن من الصور البيانية.

وقد اختلف العلماء فى مدى تفاوت درجات البلاغة فى القرآن الكريم وهذا ما سوف نعالجه فى الأسطر التالية:

- لا تفاوت فى درجات البلاغة فى القرآن :

بعد اتفاق العلماء على أن القرآن فى أعلى مراتب البلاغة، اختلفوا فى تفاوت درجات البلاغة فيه:

---

(١) الجمعة ٤.
(٢) الأعراف ١٧٦.
(٣) الأعراف ١٥٤.
(٤) التكوير ١٨.
(٥) يوسف ٨٢.
(٦) هود - ٤٤.
(٧) قارن ص ٥٦ من النظم القرآنى فى سورة الرعد - محمد بن سعيد الدبل.

فذهب بعضهم ومنهم – أبو نصر القشيرى والعز بن عبد السلام إلى أن هناك تفاوتا فى درجات البلاغة فى القرآن، ففيه الأفصح والفصيح وقارن بعضهم بين قول الله تعالى «وقيل يا أرض ابلعى ماءك» وقوله «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون».

وحجة هؤلاء : أنه لو جاء القرآن كله فى الدرجة العليا، لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح فلا تتم الحجة فى الإعجاز لأنهم سيقولون أتيت بما لا قدرة لنا على جنسه(١).

– وذهب الجمهور إلى أن جميع القرآن ومجموعه فى الدرجة العليا من الفصاحة، وأما ما يتوهمه البعض من كون بعض الآيات أرقى بلاغة من آيات أخرى، فذلك راجع إلى درجة إحساس الإنسان نفسه، فبعض الناس أشد إحساسا وإدراكا لبلاغة بعض الآيات دون البعض، وليس معنى ذلك أن البعض الذى لم يُدرك ناقص فى الدرجة عن البعض الآخر، ذلك أن القرآن كله فى أقصى درجات البلاغة، وهذا ما يميز القرآن عن أشعار العرب وآدابهم، فقد احتوت هذه الآداب على فنون كثيرة من البلاغة، ولكنها تفاوتت علوا ونزولا، ففى القصيدة الواحدة نجد أبياتا بليغة وأخرى أقل بلاغة، أما القرآن الكريم فقد جاء كله فى الدرجة العليا من البلاغة والفصاحة، على اختلاف أغراضه ومقاصده من العقائد إلى السياسة والاقتصاد والاجتماع والحدود والجنايات، وكلها أغراض لا تساعد على الوصول إلى الدرجة العليا.

ومع ذلك بلغ القرآن فيها أقصى درجات البلاغة والفصاحة لدرجة أنك لا تجد فى اللغة العربية كلمة واحدة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها، وما تعطيه من معنى ومناسبة لما قبلها وما بعدها(٢).

لا فرق فى ذلك بين آية وآية ولا بين سورة وسورة، فقد انبهر العرب واندهشوا بقليل القرآن الذى نزل قبل أن يكتمل، وهذا دليل قاطع على أن كل آية فيه قد بلغت أرقى درجات البلاغة والفصاحة.

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٢٣.

(٢) سعيد حوى – الرسول ص ٣٠٢.

الوجه الثانى:

نقض القرآن لعادة الناس فى الحديث حيث جاء بطريقة جديدة فى صورتها لم تعهدها البشرية من قبل، لا فى أسلوب الحديث ولا فى طريقته، متميز فى مطالبه وفواصله ومقاطعة. وصورته العامة عن صور الكلام المعتاد فى لغة العرب، وهذا أمر بين لمن عنده أدنى تذوق للغة العربية، فليأت من شاء بما شاء من نص لخطيب مفوه أو لشاعر مفلق أو لأديب بلغ النهاية فى البلاغة والفصاحة، وليسمع هذا النص بأذنه، ثم ليسمع بعده آيات من كتاب الله. وسوف يدرك على الفور أن البعد بين الأسلوبين البشرى والآلهى، بعد ما بين السماء والأرض، فللقرآن صورته الخاصة التى لا يمكن أن تشاركه فيها أية صورة من صور كلام العرب المعهودة.

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل، وتوضيح. ذلك أن مراتب تأليف الكلام وصوره المعتادة عند الناس خمس:

الأول : ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصل الكلمات الثلاث وهى الإسم والفعل والحرف.

والثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصل الجمل المفيدة وهذا النوع هو الذى يستخدمه الناس فى حديثهم ويسمى بالنثر.

الثالثة : ضم بعض ذلك ضما مقصودا بحيث يكون له مبادىء ومقاطع ومداخل ومخارج يقال له المنظوم والمنظوم ينقسم إلى خطابة ورسالة.

الرابعة : أن يعتبر فى أواخر الكلام مع ما سبق – تسجيع وتناسب فى الخواتيم ويقال له «السجع».

الخامسة : أن يراعى مع ذلك الوزن – ويقال له الشعر[1].

إذا فصور الكلام التى تعارف عليها الناس هى:

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٢٠.

الشعر بأنواعه وبحوره – السجع – النثر– النظم الذى ينقسم إلى خطب ورسائل.

ولكن القرآن نقض عادة الناس فى الحديث ولم يأت على طريقة من الطرق المعروفة ولا على صورة من الصور المعهودة على الرغم من استخدامه للمادة نفسها التى يستخدمها الناس فى كلامهم وهى اللغة العربية بحروفها وأسمائها وأفعالها.

وهذا ما يشير إليه القاضى الباقلانى بقوله: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وحقاً فإن القرآن الكريم قد أتى بطريقة فذة فى نظمها وأسلوبها إذا لم يعهد فى كلام العرب من قبل أن يبدأ الحديث بـ (الم) ولا (حم) ولا (أقترب للناس حسابهم» ولا (ياأيها الناس) (وياأيها الذين آمنوا).

ولم يعهد فى كلام الناس كون الفواصل على هذا النمط القرآنى الرائع «إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» بعد كلام يدل على النظر واستخدام الفكر «وهو على كل شىء قدير» بعد كلام يدور حول قدرة الله ولم يعهد تقسيم الكلام إلى سور طويلة وقصيرة ومتوسطة. نعم لم يعهد هذا الأسلوب أبداً فى لغة العرب وهذا ما يشير اليه الرمانى بقوله: «إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة»[1].

ومع أن القرآن قد جمع محاسن وفضائل هذه الطرق المعروفة إلا أنه لم يأت على صورة منها، بل كان من حيث النظم «نسيج وحده» وفريد لا شبيه له ولا نظير.

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٨ تحقيق محمد خلف الله وزغلول سلام.

ولنأخذ على هذا الوجه مثلا واحدا هو قول الله تعالى فى سورة هود عليه السلام «وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين، وقيل يا أرض أبلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين».

استمع إلى هذه الآيات وتأمل مافيها من بديع التنسيق وعجيب النظم، وجميل الفواصل بين الآيات، وكيفية تركيب الحروف وارتباط الكلمات بعضها ببعض، الكلمة الأولى مع الكلمة الثانية وما بعدها إلى نهاية الآية، فيبدو الجمال والعجب من خلال هذا الربط المحكم.

ولنترك هذا التعميم ونفصل ما فى الآية الأخيرة من عجيب النظم. حيث بدأت بياء النداء دون غيرها من أدوات النداء نحو «يا أيتها الأرض» مثلا. ونداء الأرض فى حد ذاته شىء جميل وأمرها ببلع الماء شىء فريد، وإضافة الماء إلى الكاف فى (ماءك) دون أن يقول «أبلعى الماء» شىء له معنى، ثم عقب ذلك بنداء السماء وأمرها بما هو من شأنها ثم قال «وغيض الماء» فجاء بالفعل مبنيا للمفعول، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يغض إلا بأمر وقدرة قادر. ثم أكدت الجملة التالية هذا الأمر وقررته «وقضى الأمر» ثم ذكر ما هو النتيجة من هذا الأمر «واستوت على الجودى» ثم قابل «قيل» في الخاتمة بـ «قيل» فى الفاتحة وختمت الآية بهذا الختام المناسب للمقام «وقيل بعداً للقوم الظالمين» وقد اقتبسنا بعض فقرات هذا التعليق من نص لشيخ البلاغة» عبد القاهر الجرجانى والذى عقب عليه بقوله: إن هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة وهيبة تحيط بالنفس من أقطارها. مرجعها إلى ما بين معانى الألفاظ من الإتساق العجيب»(١).

إذا فنظم ألفاظ القرآن وإرتباط معانيها وجه من وجوه الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم.

---

(١) راجع ص ٣٣ من دلائل الإعجاز.

وقد اعترض البعض على هذا الوجه بأن فى القرآن بعض آيات جاءت على أوزان الشعر، وآيات أخرى جاءت على صورة السجع، فكيف يدعى أنه نظم فريد فى ذاته : وسوف نعالج هذه الشبهة فيما يأتى :

١ - شبهة الشعر :

إدعى بعض المشككين أن فى القرآن آيات جاءت على أوزان الشعر وبحوره كقوله: «ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»(١).

فقد ادعوا أنه جاء على بحر الوافر «مفاعلتن ست مرات».

وقوله : «أرأيت الذى يكذب بالدين، فذلك الذى يدع اليتيم» فهو من بحر الخفيف «فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن» وقد ضمن أبو نواس هذه الآية شعره فقال:

وقرا معلنا ليصدع قلبى ... والهوى يصدع الفؤاد السقيما

أرأيت الذى يكذب بالدين ... فذاك الذى يدع اليتيما

ومن ذلك قول الله تعالى: «والذاريات ذروا، فالحاملات وقرا، فالجاريات يسراً»، فهو عندهم من بحر البسيط (مستفعلن فعلن)، أربع مرات.

وغير هذا من الآيات التى ادعى المشككون أنها على وزن الشعر. وقد جمعها صاحب المقاصد(٢) غير أنه رد عليها ردا مقتضبا مما دفعنا إلى الرد المفصل.

المناقشة:

لاشك أن القرآن الكريم له أسلوبه الخاص، ونظمه المحدد الذى لا يشاركه فيه غيره ومن هنا نفى القرآن عن نفسه شائبة الشعر فقال: «وما علمناه الشعر وما ينبغى له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»(٣).

---

(١) التوبة ١٤.

(٢) راجع صـ ١٣٨ جـ ٢ من المقاصد.

(٣) يس ٦٩.

هنا نلحظ أن الآية قد حددت نظم القرآن فهو قرآن وهو ذكر – فى مقابلة الشعر وقال، «وما هو بقول شاعر»[١] بل ذم الشعراء فقال: «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً»[٢] نلحظ أن الآية قد استثنت من عموم الشعراء المذمومين، أولئك الشعراء الذين جندوا أنفسهم لنصرة الدين، والتزموا الصدق فى القول:

وقد حدث عند نزول هذه الآية أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك جاءوا إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون: فقال قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبى «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

فليس الشعر منهيا عنه لأنه شعر ولا لأنه موزون، وإنما المنكر فى الشعر ماينكر فى كل كلام يجرى بالسوء أو يغرى به ويستدرج إليه مثل أشعار الخلاعة والمجون والكذب، وما عدا ذلك فقد كان النبى يسمعه ويجيزه[٣].

بل إن النبى قد حدد مبدأ الالتزام للأديب والشاعر ورسالتهما فى الدفاع عن قضايا الحق حين قال: «ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»[٤].

ومن هنا قال الإمام الغزالى: «لاينبغى أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس وقد قال (ﷺ) إن من الشعر لحكمة»[٥].

وأما ما أورده المشككون من الشبه فى هذا الوجه فيمكن الرد عليه بما يأتى:

---

(١) الحاقة (٤١).

(٢) الشعراء (٢٢٤ – ٢٢٥ – ٢٢٦ – ٢٢٧).

(٣) عباس محمود العقاد صـ ٣٥٨ من المجموعة الكاملة.

(٤) قارن صـ ٢٢ من البحث العلمى «مناهجه وتقنياته» د. محمد زيان عمر.

(٥) الإمام الغزالى – إحياء علوم الدين جـ ١ صـ ٣٦ وراجع صـ ١١٥ وما بعدها من كتاب الإعجاز فى دراسات السابقين – عبد الكريم الخطيب القاهرة ١٩٧٤.

أولا : أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا أعرف الناس بالشعر وكانوا هم الشعراء بحق فلو كان القرآن شعرا فما – كان – أسهل من معارضته:

ويكفينا فى هذا شهادة عالم بأصول الشعر هو المغيرة بن شعبة الذى قال لقومه حين ادعوا على القرآن أنه شعر «والله ما فيكم رجل أعلم من الشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، ووالله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا»(١).

ثانيا : لو كان القرآن شعراً لما آمن به فطاحل الشعراء من أمثال حسان بن ثابت والخنساء وكعب والحطيئة ولبيد وهم الأعلمون بأصول الشعر الأعرفون بطبيعته وروحه وبحوره(٢).

وتروى كتب السيرة أن الطفيل بن عمرو الدوسى، وكان رجلا شاعراً وأديباً– قد ذهب إلى مكة، فراح صناديد قريش يحذرونه من كلام محمد ويدعون أن قوله كالسحر يفرق به بين المرء وأهله بل بين المرء ونفسه.

ولكن الطفيل قال فى نفسه: «والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسنا قبلته وإن كان قبيحاً تركته».

فذهب إلى رسول الله ﷺ وقص عليه ما دار بينه وبين المشركين وما حدثته به نفسه فتلى عليه الرسول بعض آيات من كتاب الله، فإذا به يدخل فى الإسلام حيث أدرك أن ماقاله محمد لا يمكن أن يكون نمطا من أنماط كلام البشر(٣).

بل إن لبيد بن ربيعة عندما سمع أن محمداً يتحدى الناس بكلامه، قال بعض أبيات وعلقها على باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة امتياز لم تدركه إلا

---

(١) سيرة ابن هشام وراجع صـ ٢٣٤ جـ ١ من كتاب الشفاء القاضى للقاضى عياض حيث ينقل قصة إسلام أنيس أخى أبى ذر – وقد كان أنيس من أشعر العرب وقد حاول أن يوازن بين القرآن والشعر فانتهى به الأمر إلى الإسلام حين أدرك بعد الفرق بين القرآن والشعر.

(٢) سعيد حوى – الرسول ص ٢٤١.

(٣) راجع صـ ١٧٢ من حياة محمد للأستاذ محمد حسين هيكل.

فئة قليلة من كبار شعراء العرب. وحين رأى أحد المسلمين هذه الأبيات أخذته الغيرة فكتب بعض آيات من القرآن الكريم - وعلقها إلى جوار أبيات لبيد. ومر لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي - ولم يكن قد أسلم بعد - فأذهلته الآيات القرآنية حتى أنه صرخ من فوره قائلا والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين[١].

ترى لو كان القرآن شعراً هل كان من الممكن أن يؤمن به هؤلاء الشعراء المفلقون، إن منطق العقل يقول لا، ولكن هؤلاء أسلموا وآمنوا بالقرآن من كل قلوبهم وسلموا بأنه بعيد كل البعد عن أن يكون شعرا.

ثالثا : أن هناك فرقا شاسعا بين طبيعة الشعر وأغراضه وروحه وبين القرآن الكريم.

فالشعر إنما يقوم على التخييل وتصوير الباطل في صورة الحق والإفراط والمبالغة في الذم أو المدح.

أما القرآن فهو منبع الحق ومجمع الصدق لا كذب فيه ولا مبالغة ولا بعد عن الحقيقة والواقع أبداً[٢] ويفرق الشهيد سيد قطب بين طبيعة الشعر وطبيعة القرآن بأن الشعر انفعالا أولا ثم تعبير عن هذا الانفعال ثانيا، والظاهرة الانفعالية من طبيعتها التغير والتقلب من حال إلى حال:

أما القرآن فقائم على أساس النبوة، فهو وحي على منهج ثابت لاتقلب فيه ولا تغير[٣] وإنما يسير على منهج الله في الحديث «ومن أصدق من الله قيلا»[٤].

رابعا : أن للشعر مفهوما علميا محددا لا يمكن أن ينطبق على القرآن الكريم، فقد عرفوه بأنه الكلام الموزون المقفى المقصود لذاته.

---

(١) راجع صـ ١٥٥ من كتاب المذاهب المعاصرة للدكتور عبد الرحمن عميرة.
(٢) الاتقان جـ ٢ صـ ١٢٣.
(٣) راجع في ظلال القرآن صـ ٢٩٧٥ وقارن من قضايا النبوات صـ ١٠٤ وما بعدها.
(٤) النساء - ١٢٢.

وعلى هذا فما يرد على ألسنة الناس عفوا من كلام موزون أو مقفى لا يعد شعرا، لأنه غير مقصود إليه، وإلا فسوف يكون الناس كلهم شعراء، فنحن نسمع من العامى قوله «اغلق الباب وائتنى بالطعام» فهو من بحر الخفيف وعلى وزن (فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن).

وقد يقول آخر «اسقنى الماء يا غلام سريعا» وهى على نفس الوزن السابق.

فهذا وأمثاله لا يمكن أن يكون شعراً حتى ولو أتى على وزن الشعر لعدم القصد إليه.

ومن هنا قال العلماء أن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا.

يقول ابن سنان الخفاجى «أقل ما يقع عليه اسم الشعر بيتان لأن التقفية لا تمكن فى أقل منهما ولا تصير فى البيت الواحد، لأنها مأخوذة من قفوت الشىء إذا تلوته»(١).

وأما الرجز فإنه يعرض فى كلام العوام كثيرا، وقيل إن أقل ما يكون منه شعرا أربعة أبيات، بعد أن تتفق قوافيها، ولم يقع ذلك فى القرآن أبداً(٢).

وهكذا تتلاشى هذه الشبهة ويحتفظ القرآن بنظمه الخاص الذى لا يشاركه فيه أى نظم بشرى.

٢ - شبهة السجع :

ادعى البعض أن القرآن الكريم قد جاء على طريقة معهودة فى الحديث عند العرب وهى طريقة السجع، واستدلوا على هذا بالآيات التى توالت فيها فواصل القرآن وآياته على نسق واحد كقوله «الرحمن - علم القرآن - خلق الإنسان».

وقوله (والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وماقلى» وغيرها من الآيات.

---

(١) راجع كتاب سر الفصاحة للخفاجى صـ ٣٣٨.

(٢) راجع صـ ٥٣، ٥٥ من إعجاز القرآن.

المناقشة:

يمكن تلخيص الرد على هذه الشبهة فيما يأتى :

أولا : شبهة وجود السجع فى القرآن من الشبه التى لا تقوم على أساس ولا برهان، ولو عاد هؤلاء إلى أحاديث الرسول لعرفوا طبيعته البعيدة كل البعد عن التكلف، فقد كان الرسول ﷺأشد الناس كراهية للتكلف فى الكلام حتى قال «هلك المتنطعون» والتنطع فى الكلام التعمق فيه والتفاصح(١).

والسجع إنما يقوم أول ما يقوم على التنطع فى الكلام والتكلف فيه فكيف يقع السجع فى القرآن الكريم وقد ذمه الرسول صراحة حين جاءه رجل «هذلى» يجادل في ديه جنين قتله، فقال: كيف ندى من لاشرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل؟ (يهدر) فقال الرسول ﷺ «أسجع كسجع الكهان وفى رواية أسجع كسجع الأعراب(٢).

فهل يعقل أن يذم الرسول ﷺ السجع بهذه الصورة ثم يأتى السجع فى القرآن؟ وخصوصا أن الكهانة تنافى النبوة.

ثانيا : أن ما وقع فى القرآن مما ظاهره السجع إنما كان لوناً آخر من ألوان البلاغة والفصاحة وهو الفواصل: وفرق شاسع بين السجع وبين الفواصل فالفواصل هى حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى، كما أن الفواصل تابعة للمعانى – أما الأسجاع فالمعانى تابعة لها، وهذا معنى ما قاله الباقلانى: «إن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع، أما الفواصل فهى تابعة للمعانى»(٣).

ويوضح ابن سنان الخفاجى هذا النص بقوله: «إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة في نفسها»(٤).

---

(١) النبأ العظيم صـ ٩٩.
(٢) رواه الشيخان.
(٣) إعجاز القرآن ص ٢٧١ وقارن ص ٩٠ وما بعدها من ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.
(٤) د. عائشة عبد الرحمن – الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٤١.

وبمعنى أوضح أن اللفظ فى نهاية الفاصلة القرآنية إنما يوضع لكى يؤدى معنى مقصوداً ولا يمكن أن يؤديه لفظ آخر، أما السجع فمن الممكن أن نضع لفظاً مكان لفظ مرادف ولا يختل المعنى.

وتعطينا الدكتورة بنت الشاطىء بعض الأمثلة التى توضح ذلك ومنها: قول الله تعالى «إن علينا للهدى، وإن لنا للآخرة والأولى[١]» التى وردت فى سورة والليل إذا يغشى والتى انتهت فواصلها كلها بحرف الياء..

وقد قال بعضهم: إن القرآن قد عدل عما هو مألوف ومعروف ومنطقى من تقدم الأولى على الآخرة وذلك مراعاة للسجع. والواقع غير ذلك، فليس القصد من رعاية الفاصلة هو الذى أدى إلى التقديم والتأخير وإنما المعنى هو الذى اقتضى ذلك لأن الآية وردت فى سياق البشرى والوعد - ولا شك أن ذلك يقتضى تقديم الآخرة فهى خير وأبقى وعذابها أكبر وأشد. ومثال آخر فى سورة الزلزلة التى ختمت بقوله «بأن ربك أوحى لها» حيث عدى أوحى باللام - وإن كان المشهور تعديتها بإلى - وذلك لمراعاة السجع.

ولكن الواقع غير ذلك أيضاً، فحين نستقرأ فعل الإيحاء فى القرآن نلاحظ أن فعل الإيحاء لا يتعدى بإلى إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء وقد ورد بهذه الصورة فى سبع وستين آية، وأما حين يكون الموحى له جماد فالفعل يتعدى باللام كما فى آية الزلزلة أو بفى كما فى آية فصلت «وأوحى فى كل سماء أمرها» وإذن فالأمر ليس عدولا لمراعاة الفواصل بل التعدى باللام مقصود لمعناه حيث أن الموحى إليه جماد وهو الأرض[٢].

إذاً ففواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعانى، أما السجع فليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة كسجع مسيلمة الكذاب أو كسجع الحمامة حين تنطق بأصوات متوالية على وتيرة واحدة بلا فائدة ولامعنى.

---

(١) الليل ١٢ - ١٣.

(٢) المرجع السابق ٢٥٨.

ونأخذ على هذا مثلا من سورة الفلق التى ظن البعض أنها شبيهة بسجع الكهان، لكى ندرك أن الفواصل لها دور فى إفهام المعانى. بدأت الآية بالاستعاذة برب الفلق وهو الفجر وهو الأنسب للاستعاذة به من ظلام ما سيأتى «مما خلق، ومن الغاسق، والنفاثات والحسد» يعوذ برب الفجر «من شر ما خلق» هكذا بالتنكير وبما الموصولة الشاملة وهذا ملائمة للغموض والظلام المعنوى فى العموم «ومن شر غاسق إذا وقب» وهو الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شىء «ومن شر النفاثات فى العقد» وجو النفث فى العقد من الساحرات كله رهبة وخفاء وظلام، بل هن لا ينفثن غالبا إلا فى الظلام «ومن شر حاسد إذا حسد» والحسد انفعال باطنى مطمور فى ظلام النفس.

إذاً فالجو كله ظلام ورهبة وخفاء وغموض، وهو يستعيذ من هذا الظلام بالله وهو رب كل شىء، فلم خصصه هنا برب الفلق؟ لينسجم مع جو الصورة كلها.

وليس فى هذا البيان شىء من التمحل، وليست هذه الفواصل كلها بلا هدف، وليست المسألة مجرد توالى حروف على وتيرة واحدة إنما هى مسألة لوحة وجو معين وتنسيق خاص يرسمه القرآن من أجل إيصال معان معينة[1]، وأحيانا يكون الهدف من الفواصل التعبير بإيقاع موسيقى معين وهذا ما سوف نفصله حينما نتحدث عن التصوير الفنى فى القرآن.

ثالثاً:

لو كان ما وقع فى القرآن سجعاً، لقاله المشركون، ولحاولوا معارضته، فما أسهل السجع، وما أكثر أصحاب السجع المطبوعين من العرب، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، مما يدل على أن القرآن الكريم قد أتى بنظم فريد فى ذاته لا يشبه شيئاً من الأساليب المعهودة فى كلام العرب.

وقد اعترض بعض الباحثين على هذا الوجه من زاوية أخرى حيث ادعى أن الاختلاف فى شكل الكلام لا يقتضى لذاته تفاضلا، فلا اعتبار للشكل، ولكن

---

(١) راجع التصوير الفنى فى القرآن ص ٩٥ وما بعدها.

الاعتبارات يجب أن تكون للمضمون وذلك باشتمال الكلام على أصول البلاغة، ولو صح أن نقض العادة بضروب جديدة من قوالب الكلام يمكن أن يكون واحدا من أسس الإعجاز فى القرآن، يصح لكتاب المسرحيات أن يزعموا لأنفسهم شيئاً من الإعجاز لأنها صورة من صور الأداء الفنى لم تكن معروفة عند العرب ومثلها المقالات، واليوميات، والمقامات فكلها أنماط جديدة لا عهد للعرب بمثلها[1].

إلى هذا الرأى ذهب الدكتور عبد الرءوف مخلوف – متابعاً طه حسين فى كتابه «فى الأدب الجاهلى».

والواقع أن هذا الاعتراض فى غير محله، لأن أية صورة من صور كلام البشر كانت قديمة أو حديثة فهى لا تخرج عن الصور المعدودة فالمسرحيات واليوميات والمقامات وكل ما يستجد من صور الكلام لا يخرج عن كونه نثراً أو شعراً فهى أفراد تحت الأنواع الكلية، ولكنها ليست بأنواع جديدة للكلام.

ثم ما المانع أن نعتبر صورة القرآن وجها من وجوه الإعجاز البيانى وخصوصاً إذا كان خروجا عن المألوف – ثم نعتبر المضمون والمحتوى وجهاً آخر وهذا ما قال به كثير من الباحثين.

الوجه الثالث:

ومن مظاهر الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم:

وضع اللفظ فى موضعه المناسب: بحيث لو وضع مكانه لفظ آخر لما أدى المعنى المقصود أبدا، أو كما يقول ابن عطية فى تفسيره: إن كتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد.

ولنأخذ بعض الأمثلة التى تؤكد هذا الوجه.

يقول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض»، فهنا كلمة اثاقلتم إنما وضعت لكى ترسم صورة معينة لأولئك المتقاعسين عن الجهاد فى سبيل الله، ولو أننا غيرنا اللفظة بكلمة «تثاقلتم»

---

(١) د. عبد الرءوف مخلوف – الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن ص ١٩٩.

لما أدت المعنى المنشود إذ اللفظة القرآنية فيها هذا التثاقل الشديد الذى يرسم صورة هؤلاء الهاربين من الجهاد فى سبيل الله، وفى آية أخرى نلاحظ دقة التعبير باللفظ.

يقول الله تعالى على لسان هود: «قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» فكلمة أنلزمكموها تصور جو من الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق وشد بعضها إلى بعض، ولو اخترنا أى لفظ فى اللغة العربية للتعبير عن هذه الصورة لما وجدنا. ونسمع إلى لفظة أخرى ترسم صورة بأكملها هى لفظة «يصطرخون» التى وردت فى قوله تعالى: «والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل».

فوقع هذه الكلمة وجرسها الغليظ يخيل إلينا غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقى هذه الكلمة ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذى لايجد من يهتم به، ونلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذى هم فيه يصيحون[1]، فهذه لفظة ترسم لوحة متكاملة، ولو أننا بحثنا فى اللغة العربية عن كل مترادفات هذه اللفظة ووضعنا واحدة منها مكانها، لما أدت المعنى الذى أدته اللفظة القرآنية.

ويطبق الإمام الخطابى هذا الوجه على كلمة «فأكله الذئب» التى وردت على لسان إخوة يوسف، وهل من الممكن أن نضع مكانها كلمة «افترسه» فهى فى ظاهرها قد تبدو أقوى من أكله وأكثر إفادة للمعنى، ولكن عند النظرة الثانية نلاحظ أن كلمة «افترسة» لا يمكن أن تحل محل اللفظة القرآنية، لأن الافتراس معناه فى فعل السبع – القتل فحسب، وأصل الفرس دق العنق – وما أراد أخوة يوسف أن يقولوا ذلك، إنما أرادوا أن يقولوا إن الذئب قد أكله أكلا – وأتى على جميع أعضائه فلم يترك منه عظما ولا لحماً.

---

(١) الشهيد سيد قطب – التصوير الفنى ص ٧٦ وما بعدها.

ذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة - وكلمة افترس لا يمكن أن تعطى المعنى الذى أعطته (أكل)[١].

وتأمل معى موضع كلمة (ليأخذوه) فى هذه الآية الكريمة من سورة غافر «وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» وهل تقع فى الحسن والإيحاء بالمعنى المقصود مع قوله «ليأخذوه» كلمة؟ وهل تقوم مقامها فى الجزلة لفظة؟

لنحاول ذلك ونضع مكانها مترادفاً من المترادفات «ليقتلوه» «ليرجموه» «لينفوه» «ليطردوه» «ليهلكوه» «ليذلوه» كلا!! لا تستطيع أية كلمة أن تعطى صورة وإيحاء «ليأخذوه» التى عبر بها القرآن الكريم فكشف بها عن مدى ما يعتمل فى نفوس أعداء الأنبياء فهم يريدون أن يأخذوه ويصنعوا به كل ما ذكر من المترادفات وما هو أكثر.

ثم تأمل معى قول الله تعالى: «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجز كاظمين. ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. والله يقضى بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء. إن الله هو السميع البصير»[٢] واستمع إلى ما يقوله الإمام الباقلانى عن وضع كل كلمة فيها: يقول الباقلانى:

إن كل كلمة من كلمات هذه الآية إذ رآها الإنسان فى رسالة كانت عينها أو فى خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت غرة غرتها، وبيت قصيدتها، كالياقوتة التى تكون فريدة العقد، وعين القلاده، ودرة الشذر[٣] إذا وقع بين كلام وشحه، وإذا ضمن فى نظام زينة، وإذا اعترض فى خطاب تميز عنه وبان بحسنه منه[٤].

---

(١) راجع ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٣٧ وما بعدها.

(٢) سورة غافر الآيات ١٨ - ٢٠.

(٣) الشذر ما يلقط من الذهب من المعدن من غير إذابة الحجارة، والقطعة منه شذره والشذر أيضاً صغار اللؤلؤ راجع مختار الصحاح.

(٣) إعجاز القرآن ص ٢٠٠

وهكذا فكل لفظة فى كتاب الله إنما وضعت لكى تؤدى معنى معيناً لا يمكن أن تؤديه سواها، وهذا ما يشير إليه الدكتور محمد عبد الله دراز بقوله: «فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحماً بالمعنى المراد (...) ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به، بحيث لا يجد المعنى فى لفظة إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ فى معناه إلا مكانه الأمين وقراره المكين».

وهذا أمر طبيعى، لأن القرآن كلام الله الذى أحاط بكل شىء علما فإذا وضع لفظة علم بشمول علمه – أى لفظة تصلح لأن تكون بعدها، ومَنْ مِنَ البشر يستطيع ذلك؟ والبشر من صفاتهم الجهل والنسيان، ولو وجد كاتب يستطيع أن ينسق عبارة ويجمع كلماتها بصورة بلاغية، فإننا نجد باقى عباراته فاقدة لهذه الميزة فما بالك والقرآن من أوله إلى آخره على هذا النمط المعجز حتى أنك لا تجد كلمة واحدة تشذ عن مكانها، فهذا من أعظم البراهين على أنه كلام العالم الذى وسع كل شىء علما.

الوجه الرابع:

– ومن وجوه البيان فى القرآن الكريم حسن الترتيب وجميل التناسب بين الآية والآية، وبين السورة والسورة حتى أن القرآن كله ليشكل وحدة موضوعية متماسكة.

– إذ نلحظ أن الآية مكونة من مجموعة من العبارات موضوعة فى نسق خاص من البداية إلى الخاتمة حتى لكأنها كلمة واحدة.

– ونلحظ أن كل آية فيه هى تفصيل لما قبلها وتمهيد لما بعدها.

– ومن ذلك أيضاً هذا التسلسل المعنوى بين الأغراض فى سياق الآيات، والتناسب والانتقال من غرض إلى غرض.

– فإذا ما تركنا العلاقة بين الآية والآية نجد أن العلاقة البديعة بين السورة والسورة، إذ نلحظ أن كل سورة هى تفصيل لإجمال، وإطناب لإيجاز ورد فى

السورة التى قبلها، وتمهيد لما بعدها، وهذه قاعدة عامة فى القرآن الكريم لم تشذ عنها آية من الايات ولا سورة من السور[١].

يقول الفخر الرازى: « من تأمل فى لطائف نظام السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»[٢].

ويزيد إعجاز هذا الوجه حين نعلم أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة وإنما نزل فى خلال ثلاث وعشرين سنة، وكان الرسول حينما تنزل عليه آية من الايات يقول ضعوها فى مكان كذا من سورة كذا حتى تم القرآن الكريم وإذا به منتظم متآلف منسجم مترابط كأنه نزل مرة واحدة، ولذلك فإن من يقرأ القرآن دون أن يعلم أنه نزل منجماً لا يستطيع أن يدرك ذلك أبداً، بل إن الذى يعلم ذلك لا يستطيع أن يفرق بين السور التى نزلت منجمة وبين السور التى نزلت مرة واحدة من حيث إحكام الربط فى كل منهما، فسورة البقرة مثلا نزلت على بضع وثمانين مرة فى خلال تسع سنين حيث جمعت بين آيات تحويل القبلة التى نزلت فى السنة الثانية للهجرة وبين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق وهو آية «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» بينما نزلت سورة الأنعام مرة واحدة ومع ذلك فالوحدة فى الأسلوب والتآخى بين الآيات شائع فى كل منهما بلافرق»[٣].

إذا فالوحدة الأسلوبية وحسن الترتيب بين الآيات مع كون القرآن نزل مفرقا ولم ينزل دفعة واحدة إعجاز فوق إعجاز.

والجدير بالذكر هنا أن سر ترتيب القرآن وصل إلى حد أن أصبح علما مستقلا بذاته كتب فيه كثير من العلماء، ومنهم البقاعى فى كتابه «نظم الدرر» وأبو جعفر بن الزبير فى كتاب «البرهان فى مناسبة ترتيب القرآن» والسيوطى فى كتاب «أسرار ترتيب القرآن».

---

(١) راجع ص ٧٨ من أسرار ترتيب القرآن للسيوطى.

(٢) السابق ص ٤٠.

(٣) راجع ص ٣٦ جـ ٢ من مناهل العرفان وقارن ص ٣٠١ من الرسول (لسعيد حوى).

الوجه الخامس:

الايجاز : وهو التعبير عن المقصود بأقصر عبارة، والوصول إلى المعنى من أقصر طريق، وهذا ما أسماه المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز «بالقصد فى اللفظ مع الوفاء بحق المعنى» وهما نهايتان كما قال - بحق - من حاول أن يجمع بينهما دون ميل ما إلى أحدهما[١] لم يستطع. فالذى يحاول الإيجاز والقصد فى العبارة لابد أن يحيف على المعنى. والذى يحاول الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه لابد أن يحتوى كلامه على كثير من الحشو والفضول.

ويعتمد الإيجاز على مايسمى بالاختزال، أو ما سماه بعضهم بالمسافة الزمنية يقول عبد القاهر الجرجانى فى كتابه دلائل الإعجاز «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسر، فإنك ترى به ترك الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن[٢].

ويعبر الإعجاز عن خاصية من خصائص اللغة العربية وهى التحليلية التى تقوم على الإيحاء أى إيحاء المسافة الزمنية التى قد تكون أهم بكثير من إيحاء الكلمة المحذوفة لو ذكرت، فالمسافة الزمنية إذا هى البديل الذى حل محل الكلمة، فالعربى يستغنى بقدرة خيالية فائقة عن الكلام المحذوف فى لمحة.

ومما يزيد فى إعجاز الايجاز فى القرآن الكريم، هو أنه بين الإيجاز والتقصير خيط دقيق مع أن أحدهما ميزة والثانى عيباً، وفى هذا يقول الرمانى، والإيجاز بلاغة والتقصير عيب، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيب، والإيجاز لإخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير لأنه لابد فيه من الإخلال[٣].

إذا فأمر عسير أن يقلل الإنسان من الكلام من غير إخلال بالمعنى.

---

(١) النبأ العظيم ص ١٠٩.
(٢) دلائل الإعجاز ص ١١٢.
(٣) راجع ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن صـ ٢.

أما القرآن الكريم فقد جمع بين هاتين الفضيلتين التى يستحيل على البشر بعلمه القاصر أن يجمع بينهما.

وخذ على سبيل المثال قوله الله تعالى: «ولكم فى القصاص حياة».

والمعنى المقصود من هذه العبارة الموجزة: هو أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَل قُتِل كان ذلك داعيا قويا إلى عدم إقدامه على القتل، فلا يقتل، وبذلك يكون فى ارتفاع القتل قصاصا حياة للناس.

هذا المعنى الطويل الذى عبرنا عنه بألفاظنا البشرية هذا التعبير المطنب عبر عنه القرآن بهذه العبارة الموجزة، وقد عبر بعض البلغاء من العرب عن هذا المعنى بعبارة موجزة فقال: «بعض القتل إحياء للجميع»، ومنهم من قال: «القتل أنفى للقتل»[١].

وقد قارن الخطيب القزوينى[٢] بين الآية القرآنية وبين هذه التعبيرات فذكر عشرة أوجه فى فضل الآية على هذه العبارات.

ونقول إن المسألة لا تحتاج إلى مقارنة وإظهار وجوه فضل الآية القرآنية على هذه التعبيرات، لأنه لامجال للمقارنة بين كلام الله وبين كلام البشر، لأن هذا الفضل واضح بمجرد النظرة الأولى للعبارتين الإلهية والبشرية.

واسمع إلى إيجاز القرآن فى آية أخرى تريد أن تفضل خمر الآخرة على خمر الدنيا وتوضح ما فى خمر الآخرة من مزايا وتنفى عنها ما فى خمر الدنيا من عيوب، ويعبر القرآن عن هذا المعنى فيقول: «لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون»[٣].

يقول ابن قتيبة : انظر كيف نفى عن الخمر بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر وجمع بقوله: «ولا ينزفون» عدم العقل وذهاب المال ونفاذ الشراب[٤]، وفى

---

(١) راجع البيان والتبيين جـ ٢ صـ ٣١٦.
(٢) الإيضاح فى علوم البلاغة صـ ٢٧٨.
(٣) سورة الواقعة ١٩.
(٤) تأويل مشكل القرآن صـ ٧ وقارن الحيوان للجاحظ جـ ٣ صـ ٨٦.

آية أخرى يجمع القرآن الكريم فضائل الأخلاق ومحاسنها فى عبارة موجزة فيقول «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»[١].

فليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، لأن فى أخذ العفو: صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين.

وفى الأمر بالمعروف : تقوى الله، وصلة الارحام، وصون اللسان عن فاحش القول، وغض الجوارح عن محارم الله، وفى الإعراض عن الجاهلين: الصبر، والحلم، وتنزيه النفس عن مجاراة السفهاء، ومنازعتهم الجدل والخصومة[٢].

والغريب أن كل هذه المعانى الأخلاقية يعبر عنها القرآن الكريم بهذه العبارة الموجزة وهذا مصداق لقول رسول الله - ﷺ «أوتيت جوامع الكلم». فمَنْ مِنَ البشر يستطيع أن يلخص خطابا فى موضوع من أخطر المواضيع فى عبارة واحدة؟ قطعا لايستطيع أحد ذلك، ولكن ارجع إلى سورة النمل واقرأ خطاب سليمان لبلقيس تجد - بعد ذكر العنوان والتسمية «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم - مضمون الخطاب فى عبارة واحدة جمعت بين الإيجاز فى اللفظ، والوفاء التام بحق المعنى المقصود وهى «ألا تعلو على وأتونى مسلمين».

ثم يوجز القرآن أثر هذا الكتاب فى نفس بلقيس وما قامت به من التدابير والمشورة ومن تعظيمها لأمر مستشاريها فى محاولة للتأثير عليهم فى هذا الخطب الجلل، يوجز القرآن هذه المعانى كلها وما هو أكثر منها فى هذه الآية المعجزة «يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون»[٣] وماذا يقول المستشارون والقادة فى هذا الموقف لاشك أنهم يريدون أن يقولوا كلاما كثيراً يطمئن نفس الملكة ويهدىء من روعها، وأكاد أتصور ذلك يحتاج إلى ساعات من الحديث المتوالى ولكن القرآن يختصر الزمن والكلمات والصفحات بهذه العبارة المؤدية «قالوا نحن أولى قوة وأولى بأس شديد والأمر إليك، فانظرى

---

(١) الأعراف ١٩٩.
(٢) تأويل مشكل القرآن صـ ٤.
(٣) النمل : ٣٢.

ماذا تأمرين» ما هذه الحيطة فى التعبير عما يقوله مستشار أمام ملكة، وماهذه الدقة؟ وما هذا الإيجاز فى اللفظ؟ وما هذا البيان والوفاء بالمعنى المقصود؟ إنها جوامع الكلم التى خص بها رسول الله ﷺ من دون الأنبياء. إنه الإعجاز البيانى.

الوجه السادس:

خلو القرآن من التناقض والاختلاف :

مقتضى البلاغة والفصاحة أن يكون الكلام مؤتلفاً غير مختلف، ومتسقا غير متناقض ولا متباين، وهكذا جاء القرآن الكريم مصدقا بعضه لبعض «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها»[١] وحينما ادعى المشركون أن هذا الكتاب من عند محمد ﷺ كان الجواب القاطع: «لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً» والاختلاف هو التناقض[٢] والتعارض الذى إن وقع فى كلام البشر لقصر علمه وحدود عقله، فلا يمكن أن يقع فى كلام الله.

وعلى الرغم من أن نزول القرآن استمر ثلاثا وعشرين سنة إلا أنه يأتى على هذه الصورة البيانية العجيبة. معانيه تصدق بعضها بعضا، ولا تناقض فيه بين سوره وآياته. وإذا ما أردنا أن نقدر هذا الوجه البيانى حق قدره، نعود معا إلى الكتب السماوية السابقة مثل التوراة والإنجيل. فبسبب أن العامل البشرى قد تدخل فيها بالزيادة والنقصان والتعديل والتحوير، نجدها بعد التحريف متناقضة متضاربة لدرجة أنك قد تجد التناقض فيها بين نسخة وأخرى من نسخها، بل إنك قد تجد التناقض فى النسخة الواحدة بين سفر وآخر، وبين إصحاح وآخر، بل الأغرب من ذلك أنك قد تجد التناقض داخل الصفحة الواحدة بين سطر وآخر، وفى كتابنا «مشكلات العقيدة النصرانية»[٣] و «العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية»[٤] أدلة واقعية على ما نقول حيث استخرجنا من خلال التوراة

(١) الزمر من (٢٣).
(٢) قارن صـ ٢٨٤ جـ ١ من الكشاف الزمخشرى وراجع تفسير المنار حـ ٥ ص ٣٣٤.
(٣) ص ١٩٠.
(٤) ص ١٥٦.

والإنجيل عشرات التناقضات التى أثبتنا من خلالها أن هذه الكتب قد فقدت قداستها، وأنها لا يمكن أن تكون هى الكتب المنزلة على أنبيائها. لأن التناقض ووحى السماء لا يجتمعان كما أخبر القرآن الكريم. فشأن الكتب السماوية التشابه والتصادق أو كما وصف القرآن نفسه: «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني» والتشابه هنا المراد منه التناسب، والتصادق، والائتلاف، وضده الاختلاف الذى هو التناقض والتعارض[١] الذى تنزه القرآن عنه، وكان خلوه منه برهانا على إعجازه لكلام البشر.

وليبحث من شاء كيف شاء فى القرآن الكريم عن تناقض واحد، على شرط أن يفهم المعنى الصحيح لكلمة تناقض، ولن يجد حتى ولو صعد إلى السماء بظهره، وأما هذه الشبه التى أوردها بعضهم[٢] على القرآن الكريم، فقد دلت على ضيق أفق أصحابها، وعلى عدم علمهم بأصول التناقض المنطقى، فالقرآن من أقصر سورة فيه إلى أطول سورة مصدق بعضه بعضا.

الوجه السابع:

خطابة العامة والخاصة، وأصحاب العقول والعاطفة والخيال والحس معا:

جرت العادة أن الكاتب حينما يكتب لمستوى معين من البشر لابد أن يراعى مدارك ووعى هذا المستوى.

فالكتابة للمفكرين وأصحاب العقول غير الكتابة لعامة الناس، فلو أننا خاطبنا العقلاء والمفكرين بأسلوب عامة الناس أو العكس لسقط الكلام عن رتبة البلاغة إذ البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

أما أن تكون هناك جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته فذلك مالم يتحقق إلا فى القرآن الكريم.

---

(١) ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص ٢٧٤.

(٢) راجع المقاصد جـ ٢ ص ١٣٧.

فالآية الواحدة يراها البلغاء أو فى كلام بمقاصد البلاغة ويراها العامة احسن كلام وأقربه إلى عقولهم. الآية الواحدة يسمعها العامة من الناس فيقتنعون بها ويسلمون من منطلق العاطفة والوجدان، ويسمعها العقلاء والفلاسفة فيعقلونها ويدركون ما فيها من أصول البرهنة العقلية.

واقرأ معى قول الله تعالى: «أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون»[١]، وأعرضها على إنسان عامى لا يستطيع القراءة ولا الكتابة واسأله عن رأيه فيها، سوف يقول لك إن معناها واضح لأن كل مخلوق لابد له من خالق.

ثم اعرضها على علماء الفلسفة والمنطق وأسألهم عن رأيهم فيها سوف يقولون لك إنها برهان منطقى ملزم للعقلاء، وسوف يستخرجون لك ما فيها من مقدمات ونتائج، ويبرهنون لك على كل مقدمة فيها حتى يصلوا إلى النتيجة.

سوف يقولون لك، المقدمة الصغرى فى هذا الدليل هى: المخاطبون مخلوقون وهذه قضية بدهية أضمرها القرآن لبداهتها.

والكبرى هى: كل مخلوق لابد له من خالق، وهذا الخالق إما أن يكون هو العدم «أم خلقوا من غير شىء» وإما أن يكون هو نفس المخلوق «أم هم الخالقون» والفرض الأول محال بداهة، والثانى محال عقلا، فلم يبق إلا أنهم مخلوقون لله.

منطق عقلى يسوقه القرآن الكريم فى أسلوب بلاغى بيانى يقنع العامة والخاصة معا، وأصحاب العقول والوجدان فى آن واحد[٢].

ثم اعرض قول الله تعالى «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا «على العامة والخاصة معا، تجدها واضحة فى أذهان الناس مسلمة عندهم لما فيها من المقدمات البسيطة، كما تجدها مناسبة لعقول الخاصة حيث يدركون مافيها من أقيسة استثنائية مركبة تركيبا منطقيا محكما. وهذا معنى قول الله تعالى «ولقد

---

(١) الطور الآية : ٣٥.

(٢) راجع صـ ٧٣ من كتابنا «العقيدة الإسلامية».

يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[١]، وقوله «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» فهو خبير بمنازع النفوس وما يناسبها[٢] قادر على ما يعجز عنه البشر من خطاب العقل والعاطفة بعبارة واحدة.

واسأل علماء النفس: هل رأيتم أحد تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان والعاطفة على سواء؟ سيجيبونك بلسان واحد كلا، فهذه القوى لا تعمل إلى متناوية فى حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منها اضمحلت الأخرى وكاد ينمحى أثرها، فالذى ينهمك فى التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذى ينهمك فى الخيال والوجدان والعواطف يضعف تفكيره وصدق الله حين يقول «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه»[٣].

وأما أن أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا ويجمع فى يديك هذين الطرفين معا، فذلك ما لا تظفر به فى كلام البشر ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية، فمن أين لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى أولئك الفلاسفة والمناطقة، ومن المتعة والوجدان بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟

إنه فى كلام رب العالمين، فهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا حيث تراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير[٤].

الوجه الثامن:

استمرار البلاغة فيه من أوله إلى آخره، ومن أقصر سورة فيه إلى أطول سورة، وهذا أمر غريب، لأننا قد نجد فى كلام البلغاء والفصحاء بعض وجوه

---

(١) القمر الآية : ٥٤.

(٢) العقيدة الإسلامية صـ ٥٣ للمؤلف.

(٣) الإحزاب الآية : ٤.

(٤) د/ محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم صـ ١١٤ وما بعدها، وقارن صـ ١٣٤ من كتاب «من روائع القرآن» د/ محمد سعيد رمضان البوطى – دمشق سنة ١٩٧٧.

البلاغة والفصاحة فى كل كلامهم، أو كل الوجوه فى بعض كلامهم، ولكن أن تستمر البلاغة والفصاحة مع القصيدة أو الكتاب من أوله إلى آخره، فهذا ما لم يتحقق أبدا فى كلام البشر.

– فمن البلغاء والفصحاء من يصل إلى قمة البلاغة والفصاحة فى بعض أبيات من قصيدته ولكن تخونه العبارة فى كثير من أبياتها حتى أن القصيدة كلها لتشتهر ببيت أو بيتين فيها يكثر الناس من الإستشهاد بهما ولا يهتمون بباقى القصيدة.

– ومن الشعراء والأدباء من يبرز فى فن ولا يجيد فى آخر[١]، حتى أن فطاحل الشعراء كانوا إذا تركوا الشعر إلى النثر أو الفن القصصى سقطت رتبة كلامهم عن المعتاد ووصلوا إلى درجة من الإسفاف لا يتصور معها أن كاتب هذا النثر هو فلان الشاعر المفلق.

يقول الباقلانى: «تأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه فى المديح والغزل والفخر والهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص؟ إنك تراه إذا جاء إلى وصف واقعة أو نقل خبر، عامى فى الكلام، سوقى الخطاب مسترسلا فى أمره، متساهلا فى كلامه، عادلا عن المألوف من طبعه، وناكبا عن المعهود من سجيته، فان اتفق له فى قصة كلام جيد ، كان قدر اثنتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشوا. وما تجاوزها لغوا»[٢].

بل إن الأغرب من ذلك أن فطاحل الشعراء ما كانوا يبدعون فى كل غرض من أغراض الشعر: بل كان الواحد منهم يبدع فى فن ويقصر فى آخر، فمنهم من يبدع فى المدح دون الهجاء، ومنهم من يبرز فى قصائد الغزل، ومنهم من يجيد فى الرثاء ووصف الحزن دون الفرح.

ولذلك قالوا : إن شعر امرىء القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء ووصف الخيل، وشعر النابغة عند الخوف وشعر الأعشى عند وصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء.

---

(١) شرح المواقف جـ ٨ صـ ٢٤٥.

(٢) إعجاز القرآن صـ ١٩٥ وقارن صـ ١٣ من تأويل مشكل القرآن.

وهكذا فمهما وصل الإنسان إلى أرقى درجات البلاغة والفصاحة لا يستطيع أن يحتفظ ببلاغته في كل فن من فنون القول وإنما يتفاوت كلامه ارتفاعا وانخفاضا، أما القرآن الكريم فقد بلغ الغاية القصوى في كل سورة من سوره، وفي كل آية من آياته، وفي كل غرض من أغراض القول.

واستمع إلى ترغيب القرآن حيث يقول: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» وإلى ترهيبه حين يقول: «أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير».

وقال القرآن في الزجر ما لايبلغه وهم البشر وهو ما ورد في سورة العنكبوت: «فكلا أخذنا بذنبه. فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»(١).

وقال في السخرية والاستهزاء بالمشركين «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنبكوت لو كانوا يعلمون»(٢).

وهكذا فالبلاغة والفصاحة شائعة في كل آية من آيات القرآن بلا تفاوت أو تباين، ولا أدل على ذلك من أن القرآن الكريم قد سحر العرب بالقليل من آياته التي نزلت في بداية الدعوة الإسلامية، فقصة الوليد بن المغيرة الذي شهد بإعجاز القرآن وردت في سورة المدثر وهي السورة الثالثة في ترتيب النزول لم يسبقها إلا سورة العلق وسورة المزمل(٣).

وقد بهرت هذه السور القليلة أذهان العرب البلغاء فآمن من آمن، واعترف بفصاحة القرآن وبيانه من لم يؤمن.

---

(١) العنكبوت الآية : ٤٠.

(٢) العنبكوت الآية : ٤١.

(٣) الشهيد سيط قطب – التصوير الفني في القرآن ص ١٦.

وهكذا فاستمرار البلاغة فى القرآن وجه جديد من وجوه الإعجاز البيانى نضيفه إلى ما سبق من وجوه. وقد أشار إليه حازم القرطاجنى فى مناهج البلغاء بقوله: «وجه الإعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمراراً لا يوجد له فترة[١] ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها فى العالى منه، إلا فى الشىء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة فى جميعه، بل توجد فى تفاريق منه[٢].

ويلاحظ أن هذا الوجه أرقى من الوجه الذى يقول إن إعجاز القرآن راجع إلى اشتماله على وجوه البلاغة والفصاحة، لأن هذا الوجه الأخير قد يعترض عليه باشتمال أشعار العرب على البلاغة والفصاحة أيضاً، أما استمرار البلاغة والفصاحة فى كل غرض وفى كل جزئية، فهذا ما لم يوجد إلا فى كتاب الله تعالى.

الوجه التاسع:

التصوير الفنى فى القرآن الكريم

هذا وجه جديد من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم كشف عنه الإمام الشهيد سيد قطب فى كتبه «فى ظلال القرآن» «ومشاهده القيامة فى القرآن» «والتصوير الفنى فى القرآن».

وهو لون جديد من ألوان البيان القرآنى. إذ البيان هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة مع وضوح الدلالة عليه، وقد كشف السابقون عن إعجاز القرآن البيانى من خلال تشبيه أو كناية أو استعارة أو مجاز، أو غيرها من الصورة المعروفة باسم البديع والبيان كما صنع عبد القاهر الجرجانى ومعه كل علماء

---

(١) الفترة / الوهن والضعف والخمول.

(٢) أسرار ترتيب القرآن ص ١٥ – للسيوطى تقديم أحمد عطا.

البلاغة حيث وقفوا عند أسرار الخصائص البيانية لكل نص على حدة دون محاولة لإبراز الخصائص الفنية العامة فى العرض الكلى للآيات التى تدور حول موضوع واحد.

فقد أدرك القدامى فى القرآن الكريم مواضع الجمال متفرقة، وعللوا لكل موضع منها تعليلا منفرداً فاقتطعوها اقتطاعاً من الوحدة القرآنية الكبرى أما إدراك الخصائص العامة للتصوير البيانى فى القرآن الكريم فلم يعالجوه ولم يصلوا إليه، وهذا ما قام به المرحوم الشيخ سيد قطب فى كتابه «التصوير الفنى فى القران الكريم» حيث بحث عن الأصول العامة للجمال الفنى فيه وبين السمات المطردة التى تميز هذا الجمال عن سائر ما عرفته اللغة العربية من أدب، أو بمعنى أوضح نظر الشيخ سيد قطب، إلى جانب الوحدة فى العمل الفنى.

يقول الشيخ سيد قطب: التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن وهو القاعدة الأولى فيه للبيان، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة (...) وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع»(١).

ووجه الإعجاز فى هذا اللون هو تعبير هذه الألفاظ الجامدة عن هذه الصور الفنية الحية كما يقول صاحب التجربة «فإذا ما ذكرنا أن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسية وتشخص النموذج الإنسانى أو الحادث المروى إنما هى ألفاظ جامدة لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز فى هذا اللون من تعبير القرآن»(٢).

---

(١) التصوير الفنى ص ٣٢.

(٢) السابق ص ٣٣.

ونضيف إلى ما ذكره الشيخ سيد قطب وجها آخر وهو أن محمد ﷺ لم يكن له علم ولا خبرة سابقة بطرق التصوير الفنى ولا أساليب العرض والبيان بهذه الصور الغريبة من تصوير وتجسيد وألوان وإيقاع موسيقى بين الآيات بعضها وبعض. وهذا دليل على أن هذا الكتاب هو من عند الله سبحانه وتعالى.

ونحاول الآن أن نوضح طريقة التصوير الفنى وأساليبها وذلك بالمقارنة بين طرق البلاغيين القدماء وبين طريقة الشهيد سيد قطب فى الكشف عن إعجاز القرآن. ففى قوله تعالى «واشتعل الرأس شيباً» وقوله «وفجرنا الأرض عيونا» اكتفى القدماء بإبراز ما فى هذه الآية من استعارة حيث أن الرأس لا يشتعل وإنما الاشتعال للشيب، كما أن التفجير إنما يكون للعيون. ولكنه أسند إلى الأرض على سبيل الاستعارة، وهذا أوقع من التعبير على سبيل الحقيقة فلو أننا قلنا اشتعل شيب الرأس وفجرنا عيون الأرض لما أفادنا النص العموم والشمول الذى يفيده تعبير القرآن حيث يفيد بأن الشيب قد لمع فى الرأس وشاع فيه من كل ناحية حتى لم يبق من السواد شىء، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به، كما أن التعبير البلاغى فى الآية الثانية أفاد أن الأرض قد أصبحت عيونا كلها وأن الماء قد فار فى كل مكان فيها وهذا ما لايستفاد من التعبير الحقيقى «فجرنا عيون الأرض» إذ المفهوم منه أن الماء فار من عيون متفرقة فى الأرض ولكنه لا يفيد العموم والشمول الذى أفاده التعبير القرآنى(١).

أما المرحوم الشهيد سيد قطب فقد قال عن مثل هذه الآيات: نعم إن ما ذكروه نوع من الجمال نظروا فيه إلى ناحية نظم الآية نظرة جزئية ولكن هناك شىء آخر وراء ذلك، هو هذه الحركة التخييلية السريعة التى يصورها التعبير: حركة الإشتعال التى تتناول الرأس فى لحظة وحركة التفجير التى تفور بها الأرض فى ومضة فهذه الحركة التخييلية تلمس الحس وتثير الخيال وتشرك النظر والمخيلة فى تذوق الجمال وهى فى «واشتعل الرأس شيباً» أوضح وأقوى، لأن حركة الإشتعال هنا حركة ممنوحة للشيب وليست له فى الحقيقة وهذه الحركة هى

---

(١) راجع دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى صـ ٢.

عنصر الجمال الصحيح، ويدل على ما نقول، أن الجمال فى قولك اشتعل البيت ناراً لا يقرب من قول القرآن «اشتعل الرأس شيباً» ففى التعبير بالإشتعال عن الشيب جمال وفى إسناد الإشتعال إلى الرأس جمال آخر يكمل أحدهما الآخر(١).

وهكذا وقف السابقون عند حدود المصطلحات الفنية فى البلاغة وكيفية تطبيقها على آيات الكتاب الكريم بينما تجاوز السيد قطب هذه المرحلة حين أبرز الصورة الفنية فى النص(٢) بصورة شاملة وهذا ما سوف يزداد وضوحاً فى الأسطر التالية:

أساليب التصوير الفنى فى القرآن:

للتصوير الفنى فى القرآن أساليب كثيرة ومنها:

١ – التعبير عن المعنى الذهنى بالصورة الحسية:

وذلك ما ورد فى آيات كثيرة منها قول الله تعالى «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط».

فالآية بطريقة التصوير الذهنى تريد أن تقول إن الذين كفروا لن يدخلوا الجنة أبداً، ولكن أسلوب التصوير الحسى عرض الآية بهذه الصورة حيث ترك الإنسان يرسم بخياله صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ فى سم الخياط – ويختار من أسماء الحبل الغليظ إسم (الجمل) خاصة فى هذا المقام لاستكمال الصورة ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثير ليستقر فى النهاية معنى إستحالة دخولهم الجنة فى

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن صـ ٢٩.

(٢) ويلاحظ أن الباقلانى له إرهاصات فى هذا المجال حيث نظر إلى الوحدة الفنية أيضاً، وكذلك الزمخشرى فى كشافه له نظرته النفسية التحليلية راجع صـ ٤٢ وصـ ٤٩ من كتاب «الإعجاز القرآنى من الوجهة التاريخية» د. محمد العزب.

أعماق النفس وقد ورد إليها هذا المعنى من طريق العين والحس - تخييلا - ومع وروده من طريق الذهن أيضاً[١].

٢ - التعبير عن الحالة النفسية بالصورة المحسوسة:

وهو ما يسمى بالتجسيم النفسى وإخراج ما يدور فى النفس إلى عالم المحسوسات[٢].

ومن ذلك قوله تعالى «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة».

والحالة النفسية هنا هى حالة تزعزع العقيدة حيث لا يستقر الإنسان على يقين ولا يحتمل قضاء الله بقلب مطمئن، ولا يجعل عقيدته بمعزل عن ملابسات حياته بعيدة عن ميزان الربح والخسارة - ولكن القرآن يعبر عن هذه المعانى النفسية «التزعزع» بصورة مجسمة محسوسة. فالخيال يكاد يجسم هذا الحرف الذى يعبد الله عليه هذا البعض من الناس وإنه ليكاد يتخيل الإضطراب الحسى فى وقفتهم وهم يتأرجحون بين الثبات والإنقلاب وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع لأنها تسطع فى الحس وتتصل منه بالنفس[٣].

ومن ذلك رسم القرآن وتصويره لحالات الفزع والخوف من خلال عرضه لمشاهد القيامة فى أول سورة الحج «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد».

ففى الآية تصوير حسى مجسم لمعانى نفسية، فالمشهد الذى تعرضه الآية حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت، تنظر ولا ترى وتتحرك ولا تعى، وبكل

---

(١) فى ظلال القرآن المجلد الثالث - صـ ١٢٩١ دار الشروق.
(٢) د. ذكى المحاستى - الأدب الدينى صـ ٣٣ - القاهرة سنة ١٩٧٩.
(٣) التصوير الفنى صـ ٤٠.

حامل تسقط حملها وبالناس سكارى وماهم بسكارى يتبدى السكر فى نظراتهم الذاهلة وفى خطواتهم المترنحة هذا مشهد مجسم تكاد العين تبصره ويكاد الخيال يرسمه(١).

٣ – خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية وهو ما يسمى بالتشخيص، وقد سماه علماء البلاغة القدامى مجازا أو استعارة.

وهذا ما ورد فى آيات كثيرة منها قوله تعالى «والصبح إذا تنفس»(٢).

فالآية أحالت الصبح إنساناً يشارك الناس فى تنفسه فتركت للخيال مجالاً واسعاً لكى يتصور هذه الحياة الوديعة الهادئة التى تنفرج عنها ثناياه وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة ويدب النشاط فى الأحياء على وجه الأرض(٣).

فأين هذا التصوير المبدع من قول علماء البلاغة القدامى إن فى الآية مجازاً حيث شبه الصبح بالإنسان فى التنفس، ثم حذف المشبه به، وعبر عنه بشى من لوازمه.

٤ – رسم الصورة المجسدة بالكلمات :

ومثال ذلك قول الله تعالى: «فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد»(٤).

فالمعنى المقصود من الآية هو لفت النظر إلى الأمم التى جاءت ومضت وكذبت أنبياءها، فأهلكها الله وتركت آثارها من ورائها.

فجاءت الآيات لتظهر لنا هذا المعنى فى صورة لوحة مرسومة بريشة مبدعة ترسم لنا صورة أمام الخيال شاخصة صامتة لا حراك فيها، صورة نبصر فيها

---

(١) راجع مشاهد القيامة فى القرآن.
(٢) التكوير – ١٨.
(٣) التصوير الفنى صـ ٦٢.
(٤) الحج – ٤٥.

أطلالا خالية وبيوتا سقط بعضها على بعض، ونبصر فى جانب من اللوحة بئرا متروكة معطلة وقصراً لا تزال فيه جدران باقية وهكذا نشاهد لوحة فنية رائعة صورتها كلمات هذه الآية فى رسم معبر نادر يغشاه صمت رهيب تلوح عليه آثار القرون والسنين[١].

٥ - التعبير بالتصوير الموسيقى :

يرى الشيخ سيد قطب أن فى القرآن إيقاعا موسيقيا متعدد الأنواع يتناسق مع الجو، ويؤدى وظيفة أساسية فى البيان ففى سورة النازعات على سبيل المثال أسلوبان موسيقيان وإيقاعان ينسجمان مع جوين فيها تمام الإنسجام:

أولهما : يظهر فى هذه المقطوعة، السريعة الحركة القصيرة الموجة القوية المبنى تنسجم مع جو مكهرب سريع النبض شديد الارتجاف على النحو التالى.

«والنازعات غرقا، والناشطات نشطا والسابحات سبحا، فالسابقات سبقا، فالمدبرات أمرا، يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، أبصارها خاشعة، يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة، أئذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذاً كرة خاسرة فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة»[٢].

والثانى : يظهر فى هذه المقطوعة الرخية الموجه التى تنسجم مع الجو النفسى الذى يلى مباشرة حديث الكرة الخاسرة والزجرة الواحدة على النحو التالى «هل أتاك حديث موسى، إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى»[٣].

والفرق واضح بين الإيقاعين وكيف أنهما ينسجمان مع معانى الآيات[٤] ولنأخذ مثلا آخر من سورة الرحمن، وإن المرء ليحار حين يقرأ هذه السورة

---

(١) د. محمد سعيد رمضان - من روائع القرآن صـ ٣١٢.

(٢) النازعات ١ - ١٤.

(٣) النازعات ١٥ - ١٩.

(٤) التصوير الفنى ص ٩٢ وقارن ص ٣٨ وما بعدها من كتاب الأدب الدينى.

فيتسائل: هل انبعث إيقاعها الرخى المنساب من مطلعها، أم من نهايتها، أم من خلال آياتها؟ وإذا به يكتشف بأن النغم يسرى فى كل فصلة من فواصلها، وفى كل مقطع من مقاطعها، بل فى كل لفظ من ألفاظها، فكل جزء فيها هو لحن شجى من ألحان السماء[١].

اقرأ فى مطلعها «الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان» وتذوق هذا النغم الرخيم الهادىء[٢].

ثم اقرأ فى وسطها «ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، ذواتا أفنان، فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما من كل فاكهة زوجان، فبأى آلاء ربكما تكذبان» ولاحظ مافى المقاطع من إيقاع متوازى يأخذ الألباب والأسماع.

واقرأ فى خاتمتها «حور مقصورات فى الخيام، فبأى آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام».

ثم استمع معى إلى لون آخر من موسيقى القرآن متهادى شجى يثير الأحاسيس يعرضه القرآن من خلال الأدعية المتعددة التى وردت فيه، واستمع إلى دعاء زكريا وهو ينادى ربه «رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب راضيا».

إن البيان هنا لا يرقى إلى وصف العذوبة التى تنتهى فى فاصلة كل آية ببيائها المشددة، وتنوينها المحول عند الوقف ألفا لينة كأنها فى الشعر ألف الإطلاق.

---

(١) د. صبحى الصالح – مباحث فى علوم القرآن ص ٣١٣.
(٢) الرحمن (١ – ٤).

والجدير بالذكر أن الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى قد سبق أن أشار إلى أسلوب التصوير الموسيقى فى القرآن من خلال كتابه «تاريخ آداب العرب»[١].

كما يقول بعض الباحثين إن أبا زكريا الفراء فى كتاب «معانى القرآن» كان أول من عنى بالموسيقى الصوتية للقرآن الكريم[٢].

٦ - التصوير والتعبير بالقصة.

وقد ورد فى القرآن الكريم كثير من قصص الأنبياء، وكل قصة لها هدف معين والقصة المكررة كانت تستكمل ما سبق وتضيف حقائق جديدة وكل قصة لها بداية ولها نهاية ولها أبطال، وهذا ما فصله الشيخ سيد قطب تفصيلا رائعا فى هذا الكتاب مما يعفينا من عرضه هنا[٣].

هذا وقد اعترض بعضهم على هذا الوجه من إعجاز القرآن بأن الفن هو التلفيق والاختراع على غير أساس من الواقع بل يكون من خلق الخيال فكيف ينسب الفن إلى القرآن الكريم بل ويكون وجها من وجوه الإعجاز فيه.

وقد أجاب الشيخ سيد قطب بأن هذا التعريف للفن غير صحيح وإن الفن يتسع أيضاً للتعبير عن الحقائق الواقعية.

وإنما نشأ هذا الوهم فى أذهان المعترضين لأن رواد القصة والفن فى العالم كانوا من هذا الصنف الذى يعتمد فى قصصه على الخيال الكاذب الذى لا أصل له من الحقيقة كما كان يصنع «هوميروس» (وهزيود» فى (الإلياذة) (والأوديسا) (والأعمال والأيام).

وكما صنع رواد الفن فى أوربا حيث إنهم لم يكونوا يتوخون الحقيقة فى أعمالهم وفنونهم.

---

(١) راجع الجزء الثانى صـ ٣٣٦.

(٢) قارن صـ ٣٧ من الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن.

(٣) التصوير الفنى صـ ١٥٤ وما بعدها.

ولكن الفن الحقيقى يتسع أيضاً للتعبير عن الواقع فالحقيقة تصلح أن تعرض عرضا فنيا كاملا وليس من العسير أن نتصور هذا متى تخلصنا لحظة من العقلية المترجمة التى نعيش بها، ومتى خلص تصورنا من النماذج الغربية البحتة ونظرنا إلى الاصطلاحات نظرة موضوعية شاملة[١].

فالفن هو جمال العرض وتنسيق الأداء وبراعة الإخراج سواء أكان ذلك التعبير عن حقيقة كما صنع القرآن الكريم أم عن خيال كما صنع كتاب القصة الغربيون قديما وحديثا.

---

(١) السابق صـ ٢٠٥.